منهج ودراسات

لآيات الأسماء والصفات

للعلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

(١٣٢٥ - ١٣٩٣هـ)

حققه وعلق عليه

سيد بن عباس الجليمي

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م



القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين ، ناصية شارع الجمهورية ،
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - فاكس : ٣٩٢٦٢٥٠ - تلكس : ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ـ ﷺ.

أما بعد: فهذه رسالة مهمة (في الأسماء والصفات) للعلامة الشنقيطي، حوَتْ قواعدَ هامة وأصولاً عامة للأسماء والصفات، مع دحض شبه المخالفين لمذهب السلف الأعلم والأسلم والأحكم.

وقد آثرنا نشرها لأهميتها ـ على وجازتها ـ وسهولة عباراتها، وهي في الأصل محاضرة ألقاها في الجامعة الإسلامية بمدينة رسول الله ﷺ.

وقد ترجمتُ للمصنف ترجمة موجزة، وضبطتُ النص، مع تخريج الآيات والأحاديث الواردة في المحاضرة.

أسأل الله تعالى أن يجعلها خالصة لوجهه، وأن يتقبلها بقبول حسن، وأن ينفع بها، وأن يجزي العلامة الشنقيطي خير الجزاء، إنه سميع قريب.

وكتب

سيد بن عباس الجليمي

القاهرة ـ ١٤١٤هـ

ترجمة المؤلف

العلامة محمد الأمين الشنقيطي

* **اسمه:** العلامة الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار ابن عبد القادر الجكني الشنقيطي. واسمه مركب (محمد الأمين) وكذا اسم والده، وذلك كثير معتاد في بلادهم.

* **مولده ونسبه:** ولد عام (١٣٢٥هـ) بالقطر المسمى: شنقيط، وهو الجزء الشرقي من دولة موريتانيا الواقعة شرق المحيط الأطلسي، وهي جنوب مراكش والجزائر، وجهة الشمال عن السنغال.

وينتهي نسبه ـ رحمه الله ـ إلى يعقوب بن جاكن الأبر، جدّ القبيلة الكبيرة المعروفة بالجكنيين، ويرجع نسب هذه القبيلة إلى حِميَر.

* **نشأته العلمية:** نشأ في بيت علم، نساءً ورجالاً، وأمه ابنة عم أبيه، ودرس على أخواله وأبناء أخواله ونسائهم مبادىء العلوم وعلوم القرآن.

وقد أتم دراساته في مختلف الفنون على كبار مشايخ البلاد في التفسير والحديث والفقه والأصول والنحو والصرف والبلاغة وغيرها، وكان مالكي المذهب دون تعصب؛ بل يذهب للدليل في الأحكام.

* **عمله وقدومه الحجاز:** بعد انتهائه من دراسة الفنون،

عمل في التدريس، وفي القضاء الأهلي، فيأتيه الخصوم فيفصل بينهم، وكانت أحكامه نافذة عند الجميع، حتى حكومة بلاده في وقتها، وقد كان ثاني اثنين في البلاد عمَّدتهم الحكومة الفرنسية بأقضية الدماء خاصة بعد امتناعه أن يلي لها أي عمل.

وفي عام (١٣٦٧هـ) قدم للحج، وبدأ التدريس في المسجد النبوي، وتعرّف عليه المسؤولون، وطلبوا منه البقاء في الحرمين للتعليم والمنفعة العامة.

وفي عام (١٣٧١هـ) طُلب للتدريس في معاهد وكليات الرياض. ثم انتقل إلى المدينة النبوية للتدريس في الجامعة الإسلامية هناك.

* مصنفاته: له مؤلفات منها:

- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن - مطبوع.
- المذكرة في أصول الفقه - مطبوع.
- أدب البحث والمناظرة - مطبوع
- ألفية في المنطق.
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب - مطبوع[1].

(١) انظر طبعة مكتبة السنة بالقاهرة بتحقيقي.

- منع جواز المجاز في المنزّل للتعبد والإعجاز - مطبوع[1].
- منظومة في الفرائض.
- فروع مالك - منظومة.
- شرح على مراقي السعود - أملاه على طلابه.
- شرح على السلم - أملاه على طلابه.
- أنساب العرب - منظومة.
- رحلة خروجه من البلاد إلى المدينة - وفي الرحلة أنواع من العلوم تتمثل في مباحثاته مع من مرّ بهم من أهل العلم والمعرفة في طريقه.

* **وفاته:** توفى الشيخ ضحى يوم الخميس السابع عشر من ذي الحجة عام (١٣٩٣هـ)، وكانت وفاته بمكة مرجعه من الحج، ودفن بمقبرة المعلاة، وصلى عليه سماحة الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن باز في الحرم المكي مع من حضر من المسلمين بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم، رحمه الله تعالى رحمة واسعة (*).

---

(١) انظر طبعة مكتبة السنة بالقاهرة بتحقيق سامي العربي.

(*) وانظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٤٥)، المنهل [عدد ذي الحجة (١٣٩٣) ص ٩٨٢]، مشاهير علماء نجد (ص٥١٧ - ٥٢٠، ٥٤٠ - ٥٤٣).

محاضرة آيات الصفات (*)

الأسماء والصفات نقلا وعقلا

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنا نريد أن نوضح لكم معتقد السلف، والطريق الذي هو المنجي نحو آيات الصفات:

أولاً: اعلموا أن كثرة الخوض والتعمق في البحث في آيات الصفات وكثرة الأسئلة في ذلك الموضوع من البدع التي يكرهها السلف...

اعلموا أن مبحث آيات الصفات دل القرآن العظيم أنه يتركز على ثلاثة أسس، من جاء بها كلها فقد وافق الصواب، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبى ﷺ وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخل بواحد من تلك

(*) التي القاها فضيلة الشيخ محمد الأمين بالجامعة الإسلامية بتاريخ ١٣ رمضان سنة ١٣٨٢.

الأسس الثلاثة فقد ضل، وكل هذه الأسس الثلاثة يدل عليها قرآن عظيم.

ـ أحد هذه الأسس الثلاثة هو: تنزيه الله جل وعلا عن أن يُشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين.

وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

ـ الثاني[1] من هذه الأسس: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، لأنه لا يَصِفُ الله [أحدٌ] أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ لأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

---

(١) الثالث من الأسس: قطع الطمع عن إدراك الكيفية، وانظر (ص٥٦، ٥٨).

فيلزم كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ. وينزه ربه جل وعلا عن أن تُشْبِهَ صفته صفة المخلوقين. وحيث أخل بأحد هذين الأصلين وقع في هوة ضلال؛ لأن من تنطع بين يدي رب السموات والأرض، وتجرأ على الله بهذه الجرأة العظيمة، ونفى عن ربه وصفًا أثبته لنفسه: فهذا مجنون[1]. فالله جل وعلا يثبت لنفسه صفات كمال وجلال، فكيف يليق لمسكين جاهل أن يتقدم بين يدي رب السموات والأرض، ويقول: هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك، ويلزمه من النقص كذا وكذا، فأنا أؤوله وألغيه، وآتي ببدله من تلقاء نفسي، من غير استناد إلى الكتاب أو السنة... سبحانك! هذا بهتان عظيم.

ومن ظن أن صفة خالق السموات والأرض تُشْبِهُ شيئًا من صفات الخلق فهذا مجنون جاهل ملحد ضال.

ومن آمن بصفات ربه جل وعلا، منزهًا ربه عن تشبيه صفاته

(١) المناسب أن يقال: ضال أو جاهل مثلاً.

بصفات الخلق: فهو مؤمن منزه سالم من ورطة التشبيه والتعطيل.

وهذا التحقيق هو مضمون قوله﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. فهذه الآية فيها تعليم عظيم يحل جميع الإشكالات ويجيب عن جميع الأسئلة حول الموضوع، ذلك لأن الله قال ﴿وَهُوَ السميعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ومعلوم أن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات. فكأن الله يشير للخلق ألا ينفوا عنه صفة سمعه وبصره، بادعاء أن الحوادث تسمع وتبصر، وأن ذلك تشبيه، بل عليهم أن يثبتوا له صفة سمعه وبصره على أساس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. فالله جل وعلا له صفات لائقة بكماله وجلاله. والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم وكل هذا حق ثابت لا شك فيه.

إلا أن صفة رب السموات والأرض أعلى وأكمل من أن تشبه صفات المخلوقين. فمن نفى عن الله وصفًا أثبته لنفسه فقد جعل نفسه أعلم بالله من الله. سبحانك! هذا بهتان عظيم.

ومن ظن أن صفة ربه تشبه شيئًا من صفة الخلق فهذا مجنون ضال ملحد لا عقل له، يدخل في قوله تعالى عن المشركين ﴿تَاللهِ إن كُنَّا لفي ضلالٍ مُّبين * إذْ نُسَوِّيكم بِرَبِّ العالمين﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨] ومن يسوِّي رب العالمين بغيره فهو مجنون.

ثم اعلموا أن المتكلمين الذين خاضوا في الكلام، وجاءوا بأدلة يسمونها أدلة عقلية، ركبوها في أقيسة منطقية، قسموا صفات الله جل وعلا إلى ستة أقسام. قالوا: هناك صفة نفسية، وصفة معنى، وصفة معنوية، وصفة فعلية، وصفة سلبية، وصفة جامعة.

أما الصفات الإضافية فقد جعلوها أمورًا اعتبارية لا وجود لها في الخارج، وسببوا بذلك إشكالات عظيمة وضلالاً مبينًا.

ثم إنا نبين لكم - على تقسيم المتكلمين - ما جاء في القرآن العظيم من وصف الخالق جل وعلا بتلك الصفات، ووصف المخلوقين بتلك الصفات. وبيان القرآن العظيم بأن صفة خالق السموات والأرض حق، وأن صفة المخلوقين حق، وأنه لا مناسبة بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق.

فصـفة الخالق لائقة بذاته، وصـفة المخلوق مناسبة لعـجزه وافتقـاره، وبين الصفة والصفـة من المخالفة كمـثل ما بين الذات والذات.

أمـا هذا الكلام الذي يدرس في أقطار الدنيـا اليـوم في المسلمين فإن أغلب الذين يُدَرِّسونه إنما يثبـتون من الصفات التي يسمونها صفات المعـاني، سبع صفات فقط، وينكرون سواها من المعاني ويؤولونها !

وصفة المعنى عندهم في الاصطلاح ضابطها هي: أنها ما دل على معنى وجودي قائم بالذات، والذي اعترفوا به منها سبع صـفات هي: القدرة والإرادة والعلم والحيـاة والسمع والبصر والكلام.

ونفوا غير هذه الصفات من صـفات المعاني التي سنبينها ونبين أدلتـهـا من كتـاب الله. وأنكر هذه المعـاني السـبعـة المعتزلةُ، وأثبـتوا أحكامها، فقالوا: هو قـادر بذاته، سميع بذاته، عليم بذاته، حي بذاته. ولم يُثْـبتـوا قدرةً ولا علمًا

ولا حياةً ولا سمعًا ولا بصرًا، فرارًا منهم من تعدد القديم، وهو مذهبٌ كلُّ العقلاء يعرفون ضلاله وتناقضه، وأنه إذا لم يقم بالذات علم استحال أن تقول هي عالمة بلا علم. وهو تناقض واضح بأوائل العقول.

فإذا عرفتم هذا فسنتكلم على صفات المعاني التي أقروا بها، فنقول:

١ ـ وصفوا الله تعالى بالقدرة، وأثبتوا له القدرة، والله جل وعلا يقول في كتابه: ﴿إِنَّ اللهَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ [البقرة: ٢٠،وغيرها] ونحن نقطع أنه تعالى متصف بصفة القدرة على الوجه اللائق بكماله وجلاله؛ وكذلك وصف بعض المخلوقين بالقدرة؛ قال: ﴿إلا الّذينَ تَابُوا من قَبْلِ أن تَقْدِرُوا عليهم﴾ [المائدة: ٣٤] ،فأسند القدرة لبعض الحوادث ونسبها إليهم. ونحن نعلم أن كل ما في القرآن حق، وأن للمولى جلَّ وعلا قدرة حقيقية تليق بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين قدرة حقيقية مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم. وبين قدرة الخالق وقدرة المخلوق من

المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق، وحسبك بونًا بذلك.

٢، ٣ ـ ووصف نفسه بالسمع والبصر في غير ما آية من كتابه، قال: ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥، ولقمان: ٢٨، و المجادلة: ١] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ووصف بعض الحوادث بالسمع والبصر، قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. ونحن لا نشك أن ما في القرآن حق، فللّه جل وعلا سمع وبصر حقيقيان لائقان بجلاله وكماله، كما أن للمخلوق سمعًا وبصرًا حقيقيين مناسبين لحاله وفقره وفنائه وعجزه. وبين سمع وبصر الخالق وسمع وبصر المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

٤ ـ ووصف نفسه بالحياة، فقال: ﴿ اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿هُوَ الحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾[غافر: ٦٥]

﴿وتَوَكَّلْ على الحَيِّ الذي لا يموت﴾ [الفرقان:٥٨].

ووصف أيضًا بعض المخلوقين بالحياة، قال: ﴿وجَعَلْنا منَ الماء كُلَّ شيء حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وسَلامٌ عَلَيْه يَوْمَ وُلدَ ويَوْمَ يَمُوتُ ويَوم يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:١٥]، ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ من الميت ويُخْرِجُ الميتَ منَ الحيِّ﴾ [الروم:١٩]، ونحن نقطع بأن لله جل وعلا صفة حياة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين حياة مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين صفة الخالق وصفة المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق. وذلك بَوْن شاسع بين الخالق وخلقه.

٥ ـ ووصف جل وعلا نفسه بالإرادة، قال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُريدُ﴾ [البروج:١٦]، ﴿إنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكون﴾ [يس:٨٢]، ووصف بعض المخلوقين بالإرادة، قال: ﴿تُريدون عَرَضَ الدُّنيا﴾ [الأنفال :٦٧]، ﴿إن يُريدون إلا فِرارًا﴾ [الأحزاب:١٣]، ﴿يُريدُون لِيُطْفِئوا نُورَ الله﴾ [الصف:٨]،

ولا شك أن لله إرادة حقيقية لائقة بكماله وجلاله كما أن للمخلوقين إرادة مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم. وبين إرادة الخالق وإرادة المخلوق [من المخالفة] كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق.

٦ - ووصف نفسه جل وعلا بالعلم، قال: ﴿والله بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ [البقرة: ٢٨٢، ومواضع أخرى]، ﴿لكنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بعِلْمِه﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بعِلْم وَمَا كُنَّا غَائِبِين﴾ [الأعراف: ٧]، ووصف بعض المخلوقين بالعلم؛ قال: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيم﴾ [الحجر: ٥٣]، ﴿وإِنَّهُ لَذُو علم لِمَا عَلَّمناه﴾ [يوسف: ٦٨]، ولا شك أن للخالق جل وعلا علمًا حقيقيًا لائقًا بكماله وجلاله؛ محيطًا بكل شيء. كما أن للمخلوقين علمًا مناسبًا لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم. وبين علم الخالق وعلم المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق.

٧ - ووصف نفسه جل وعلا بالكلام، قال: ﴿وكَلَّمَ اللهُ

مُوسى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿فأَجِرْهُ حتى يَسمَعَ كَلامَ الله﴾ [التوبة: ٦]. ووصف بعض المخلوقين بالكلام، قال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قال إنَّك اليومَ لَدَيْنا مَكِينٌ أمينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، ﴿وتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِم﴾ [يس: ٦٥]. ولاشك أن للخالق تعالى كلامًا حقيقيًا لائقًا بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين كلامًا مناسبًا لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم، وبين كلام الخالق وكلام المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق.

هذه صفات المعانى... سمعتم ما في القرآن من وصف الخالق بها ووصف المخلوق بها، ولا يخفى على عاقل أن صفات الخالق حق، وأن صفات الخالق لائقة بجلاله وكماله، وصفات المخلوقين مناسبة لحالهم. وبين الصفة والصفة كما بين الذات والذات.

وسنبين مثل ذلك في الصفات التي يسمونها سلبية.

الكلام على الصفات السلبية عند المتكلمين

ضابط الصفة السلبية عند المتكلمين:

هي الصفة التي دلت على عَدَمٍ محضٍ. والمراد بها أن تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله، من غير أن تدل على معنى وُجودي قائم بالذات. والذين قالوا هذا جعلوا الصفات السلبية خمسًا لا سادس لها، وهي عندهم: القِدَمُ، والبقاء، والمخالفة للخلق، والوحدانية، والغِنَى المطلق الذي يسمونه: (القيام بالنفس)؛ الذي يعنون به الاستغناء عن الحيّز[1] والمحل.

فإذا عرفتم هذا فاعلموا أن القدم والبقاء اللّذين وصف المتكلمون بهما الله جل وعلا زاعمين أنه وصف بهما نفسه في قوله ﴿**هو الأول والآخر**﴾ [الحديد: ٣] قد وصف بهما المخلوق. والقدم في الاصطلاح عندهم عبارة عن سلب العَدَمِ السابق، إلا أنه عندهم أخصّ من الأَزَلِ لأن الأزل عبارة عما لا افتتاح له، سواء كان وجوديًا كذات الله وصفاته، أو عدميًا[2]؛ لأن

(١) في طبعة الجامعة الإسلامية: المخصص.

(٢) كانعدام ما سوى الله، وإنها أزلية ولا يقال لها: قديمة.

العدم السابق على العالم قبل وجـوده لا أول له فهو أزلي ولا يقال فيه: قديم. والقِدَمُ عندهم عـبارة عما لا أول له بشرط أن يكون وجوديًا، كذات الله متصفة بصفات الكمال والجلال.

ونحن الآن نتكلم على ما وصـفوا به الله جل وعلا من القِدَمِ والبقاء، وإن كان بعض العلماء كره وصفه جل وعلا بالقدم كـما يأتي. فالله عـز وجل وصف المخلوقين بالقِدَم، قـال: ﴿تَاللهِ إنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَـــدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥]، ﴿كالعُرْجُونَ القَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، ﴿أَنتُم وآباؤُكُمُ الأقدَمُون﴾ [الشعراء:٧٦]. ووصف المخلوقين بـالبـقـاء؛ قـال: ﴿وجَعَلْنا ذُرِّيَّتَه هُمُ الباقِين﴾ [الصافات:٧٧]، ﴿ما عِندَكُمْ يَنفَدُ وما عِندَ اللهِ باقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. ولا شك أن ما وصف به الله من هذه الصفات مخالف لما وصف به الخلق نحو ما تقدم.

أما الله عز وعلا فلم يصف في كتابه نفسه بالقِدَمِ، وبعض السلف كره وصفـه بالقِدَمِ، لأنه قد يطلق مع سبق العَدَم، نحو ﴿كالعُرْجُونِ القَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، ﴿إنَّكَ لَفِي ضَـلالِكَ القَدِيم﴾[يوسف :٩٥]، ﴿أَنتُم وآباؤُكم الأقدَمُونَ﴾ [الشعراء:٧٦]

وقد زعم بعضهم أنه جاء فيه حديث[1] قال فيه بعض

(١) قال العلامة ابن باز في تعليقه على العقيدة الطحاوية (رقم٥) عند قوله (قديم بلا ابتداء): «هذا اللفظ لم يرد في أسماء الله الحسنى - كما نبه عليه الشارح وغيره - وإنما ذكره كثير من العلماء ليثبتوا به وجوده قبل كل شيء. وأسماء الله توقيفية لا يجوز إثبات شيء منها بالرأي كما نص على ذلك أئمة السلف الصالح. ولفظ القديم لا يدل على المعنى الذي أراده أصحاب الكلام؛ لأنه يقصد به في اللغة العربية: المتقدم على غيره وإن كان مسبوقًا بالعدم، كما في قوله سبحانه ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ [يس:٣٩]. وإنما يدل على المعنى الحق بالزيادة التي ذكرها المؤلف - وهو قوله: (قديم بلا ابتداء) - ولكن لا ينبغي عدّه في أسماء الله الحسنى لعدم ثبوته من جهة النقل، ويغني عنه اسمه سبحانه (الأول) كما قال عز وجل: ﴿هو الأول والآخر﴾ [الحديد:٣]، والله ولي التوفيق» ا. هـ. قلت: وفي حديث النبي ﷺ: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء..» أخرجه مسلم (٢٧١٣) وغيره. وقال الشيخ الألباني في تعليقه على متن الطحاوية (ص١٩/رقم ٥): «اعلم أنه ليس من أسماء الله تعالى: (القديم)، وإنما هو من استعمال المتكلمين، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره، فيقال: هذا قديم: للعتيق، وهذا جديد: للحديث، ولم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره لا فيما لم يسبقه عدم - كما قال تعالى: ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ والعرجون القديم: الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، فإذا وجد الجديد قيل للأول: قديم، وإن كان مسبوقًا بغيره - كما حققه شيخ الإسلام في (مجموع الفتاوى) والشارح في شرحه، لكن أفاد الشيخ ابن مانع هنا فيما نقله عن ابن القيم في (البدائع) أنه يجوز وصفه سبحانه بالقدم، بمعنى أنه يخبر عنه بذلك، وباب الأخبار أوسع من=

العلماء: هو يدل على وصفه بهذا، وبعضهم يقول: لم يثبت. وقد ذكر الحاكم في المستدرك[1] في بعض الروايات (القديم) في أسمائه تعالى، وفي حديث دخول المسجد: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»[2] أما الأولية والآخرية التي نص الله عليهما في قوله ﴿هو الأولُ والآخر﴾ فقد وصف المخلوقين أيضًا بالأولية والآخرية، قال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِين * ثم

= . . باب الصفات التوقيفية» قال الشيخ ناصر: «ولعل هذا هو وجه استعمال شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الوصف في بعض الأحيان » اهـ.

(١) ضعيف. أخرجه الحاكم (١/ ١٧) وفي إسناده عبد العزيز بن الحصين بن الترجمان، وقد ضعفه الأئمة وهذا الحديث من منكراته. [انظر: الميزان (٢/ ٦٢٧)، اللسان (٤/ ٢٨)، الكامل (٥/ ٢٨٦)] ومع ذلك وثقه الحاكم!! وعزاه في الكنز (رقم ١٩٣٨) لأبي الشيخ وابن مردويه في التفسير وأبي نعيم في الأسماء الحسنى.

(٢) حسن. أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٦)، ومن طريق البيهقي في الدعوات الكبير (رقم ٦٨)، وابن حجر في نتائج الأفكار (١/ ٢٨١). ورجاله ثقات عدا شيخ أبي داود (إسماعيل بن بشر) فهو صدوق تكلم في القدر.
وقال الحافظ: «هذا حديث حسن غريب، ورجاله موثقون، وهم من رجال الصحيح إلا إسماعيل وعقبة». وقال النووي في الأذكار (رقم ٦٩): «حديث حسن رواه أبو داود بإسناد جيد».

﴿نُتْبِعُهُمُ الآخِرين﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٧]. ولا شك أن ما وصف الله به نفسه من ذلك لائق بجلاله وكماله كما أن للمخلوقين أولية وآخرية مناسبة لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

ووصف نفسه بأنه واحد، قال: ﴿وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال: ﴿يُسقَى بماء واحد﴾ [الرعد: ٤]، ووصف نفسه بالغنى: ﴿إن الله هو الغَنِيُّ الحميدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، ﴿إن تكفروا أنتُم ومَن في الأرض جميعًا فإنَّ الله لَغَنِيٌّ حميد﴾ [إبراهيم: ٨]، ﴿فكفَروا وتولَّوْا واستَغْنَى اللهُ واللهُ غنيٌّ حميدٌ﴾ [التغابن: ٦].

ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال: ﴿ومَن كانَ غَنيًا فليستَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦]، ﴿إن يكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِه﴾ [النور: ٣٢].

فهذه صفات السلب؛ جاء في القرآن وصف الخالق ووصف المخلوق بها. ولا شك أن ما وصف به الخالق منها لائق بكماله وجلاله. وما وصف به المخلوق مناسب لحاله وعجزه وفنائه وافتقاره.

الكلام عن الصفات السبع

ثم نذهب إلى الصفات السبع التي يسمونها: المعنوية. والتحقيق أن عدّ الصفات السبع المعنوية التي هي كونه تعالى: قادرًا ومُريدًا وعالمًا وَحيًا وسميعًا وبصيرًا ومتكلمًا، لا وجه له لأنها في الحقيقة إنما هي كيفية الاتصاف بالمعاني السبع التي ذكرنا. ومن عدّها من المتكلمين عدّها بناء على ثبوت ما يُسمُّونَهُ الحال المعنوية التي يزعمون أنها واسطة ثبوتية، لا معدومة ولا موجودة. والتحقيق: إن هذه خرافة وخيال! وأن العقل الصحيح لا يجعل بين الشيء ونقيضه واسطة البتة، فكل ما ليس بموجود فهو معدوم قطعًا، وكل ما ليس بمعدوم فهو موجود قطعًا، ولا واسطة البتة، كما هو معروف عند العقلاء. فإذا كنا قد مثّلنا لكونه قادرًا وحيًا ومريدًا وسميعًا وبصيرًا ومتكلمًا ولما جاء في القرآن من وصف الخالق بذلك وما جاء في القرآن من وصف المخلوق بذلك، وبيّنا أن صفة الخالق لائقة بكماله وجلاله وأن صفة المخلوق مناسبة لحاله وفنائه وعجزه وافتقاره، فلا داعي لأن ننفي

وصف ربِّ السموات والأرض عنه، لئلا نشبهها بصفات المخلوقين، بل يلزم أن نُقِرَّ بوصف الله، ونؤمن به في حال كوننا منزهين له عن مشابهة صفة المخلوق.

وهذه صفات الأفعال جاء في القرآن بكثرة وصف الخالق بها ووصف المخلوق، ولا شك أن ما وصف به الخالق منها مخالف لما وصف به المخلوق، كالمخالفة التي بين ذات الخالق وذات المخلوق.

ومن ذلك أنه وصف نفسه جل وعلا بصفة الفعل التي هي أنه يرزق خلقه: قال جل وعلا: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧ - ٥٨]، ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

ووصف بعض المخلوقين بصفة الرزق، قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم

منه﴾ [النساء: ٨]، ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا وارزقوهم فيها﴾ [النساء: ٥]، ﴿وعلى المولود له رزقهن﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به منه المخلوق، كمخالفة ذات الله لذات المخلوق.

ووصف نفسه جل وعلا بصفة الفعل الذي هو العمل، قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مما عَمِلَتْ أيدينا أنعامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُون﴾ [يس: ٧١].

ووصف المخلوقين بصفة الفعل التي هي العمل؛ قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾ [الطور: ١٦]. ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل منافٍ لِمَا وصف به المخلوق مخالف له كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق...

ووصف نفسه بأنه يُعَلِّمُ خلقه: ﴿الرَّحْمنُ * عَلَّم القُرآنَ * خَلَقَ الإنسانَ * علَّمهُ البيانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، ﴿اقرأ وربُّكَ الأكرم * الَّذي علَّم بالقلَم * علَّم الإنسان ما لَمْ يَعلم﴾ [العلق: ٣ - ٥]، ﴿وعَلَّمكَ ما لم تكُن تَعْلَمُ وكان فضْلُ الله عليكَ عظيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ووصف بعض خلقه بصفة الفعل التي هي التعليم أيضًا، قال: ﴿هو الذي بَعَث في الأُمِّيين رسولاً مِّنْهم يَتْلو عَلَيْهم آياته ويُزَكِّيهم ويُعَلِّمُهُمُ الكتاب﴾ [الجمعة :٢]، وجمع المثالين في قوله ﴿تُعَلِّمونَهُنَّ ممَّا علَّمَكُمُ اللهُ﴾ [المائدة: ٤].

ووصف نفسه جل وعلا بأنه يُنْبِيء ووصف المخلوق بأنه يُنْبِيء، وجمع بين الفعل في الأمرين في قوله جل وعلا: ﴿وإذْ أسَرَّ النَّبيُّ إلى بعض أزْواجه حديثًا فلمَّا نبَّأتْ به وأظْهَرَهُ اللهُ عليه عَرَّف بعضَهُ وأعرَضَ عن بعْض فلَمَّا نبَّأها به قالت مَنْ أنبأَكَ هذا قال نبَّأني العَليمُ الخَبيرُ﴾ [التحريم:٣]. ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به منه العبد، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

ووصف نفسه بصفة الفعل الذي هو الإيتاء: قال جل وعلا: ﴿يُؤتي الحِكْمَةَ مَن يشاءُ﴾ [البقرة:٢٦٩]، ﴿ويُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود:٣].

ووصف المخلوقين بالفعل الذي هو الإيتاء، قال: ﴿وآتَيْتُم إحدَاهُن قِنطارًا﴾ [النساء: ٢٠]، ﴿وآتوا النساءَ صدقاتهنَّ نحلة﴾

[النساء: ٤]. ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به العبد من هذا الفعل كمخالفة ذاته لذاته.

الصفات الجامعة:

ثم نتكلم على الصفات الجامعة، كالعلو والعظم والكبر والملك والتكبّر والجبروت والعزّة والقوة ـ وما جرى مجرى ذلك من الصفات الجامعة .

فنجد الله وصف نفسه بالعلو والكبر والعظم، قال في وصف نفسه بالعلو والعظم: ﴿ولا يَؤُودُه حفظُهُما وهو العليُّ العظيم﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال في وصف نفسه بالعلو والكبر: ﴿إن الله كانَ عليًا كبيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، ﴿عالمُ الغَيْبِ والشَهَادَة الكبيرُ المُتَعَال﴾ [الرعد: ٩]، ووصف بعض المخلوقين بالعظم؛ قال: ﴿فانفلَقَ فكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم﴾ [الشعراء: ٦٣]، ﴿إنّكم لتَقُولونَ قولاً عظيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، ﴿ولَها عَرْشٌ عظيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]. ووصف بعض المخلوقين بالعلو؛ قال ﴿ورَفَعْناه مكانًا عليًا﴾ [مريم: ٥٧]، ﴿وجَعَلْنا لهم لِسانَ صدقٍ عَلِيًا﴾ [مريم: ٥٠]، ووصف بعض المخلوقات بالكبر:

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وأَجرٌ كبير﴾ [هود:١١، وفاطر:٧، والملك:١٢] ﴿بلْ فَعَلَهُ كبيرُهُمْ هذا﴾ [الأنبياء:٦٣]. ولا شك أن ما وُصِفَ الله به من هذه الصفات الجامعة كالعلو والكبر والعظم منافٍ لما وصف به المخلوق منها كمخالفة ذات الخالق جل وعلا لذات المخلوق. فلا مناسبة بين ذات الخالق وذات المخلوق كما لا مناسبة بين صفة الخالق وصفة المخلوق.

ووصف نفسه بالملك، قال: ﴿يُسَبِّحُ لله ما في السَّموات وما في الأرضِ الملك القُدُّوس﴾ [الجمعة:١]، ﴿في مَقْعَدَ صدْقٍ عند مَليك مُقتدر﴾ [القمر:٥٥]. ووصف بعض المخلوقين بالمَلكِ، قال: ﴿وَقَالَ الملكُ إنِّي أرَى سَبْعَ بقرَات سمان﴾ [يوسف:٤٣]، ﴿وقال الملكُ ائتوني به﴾ [يوسف: ٥٠]، ﴿وكان وراءَهُم ملكٌ يأخُذُ كُلَّ سفينَة غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٩]، ﴿تُؤْتي المُلكَ مَن تَشَاءُ وَتنزعُ الملكَ ممَّن تَشاء﴾ [آل عمران:٢٦]. ولا شك أن لله جل وعلا ملكًا حقيقيًا لائقًا بكماله وجلاله كما أن للمخلوقين ملكًا مناسبًا لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

ووصف نفسه بأنه جبار متكبر في قوله: ﴿العَزِيزُ الجَبَّارُ

﴿المُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ووصف بعض المخلوقين بأنه جبار متكبر: قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ﴿وإذا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، ﴿أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى للمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، ﴿واسْتَفْتَحُوا وخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]. ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذه الصفات مناف لما وصف به المخلوق كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق.

ووصف نفسه جل وعلا بالعزة، قال: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠، ومواضع أخرى]، ﴿أَمْ عِندَهُم خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]. ووصف بعض المخلوقين بالعزة، وقال: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، ﴿وعَزَّنِي في الخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، وجمع المثالين في قوله: ﴿وللهِ العِزَّةُ ولرسُولِهِ وللمؤمنينَ﴾ [المنافقون: ٨]. ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذا الوصف مناف لما وصف به المخلوق كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

ووصف نفسه جل وعلا بالقوة، قال: ﴿ما أُرِيدُ مِنهُم

من رزق وما أُريدُ أن يُطعمون * إنَّ اللهَ هُو الرزَّاقُ ذو القوَّة المَتينُ﴾ [الذاريات: ٥٧ ـ ٥٨]، ﴿ولَينصُرَنَّ اللهُ مـن يَنصُرُه إنَّ الله لقويٌّ عزيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. ووصف بعض المخلوقين بالقـوة، قـال: ﴿ويزدْكُمْ قـوَّةً إلى قُوَّتكُم﴾ [هود: ٥٢]، وقـال جل وعلا: ﴿الله الَذي خَلَقكُم مِّن ضَعـف ثُمَّ جـعل من بعـد ضَعف قُوة﴾ [الروم: ٥٤]، وجمع بين المثالين في قوله: ﴿فأَمَّا عادٌ فاَستَكبَروا في الأرض بغيْر الحقّ وقالُوا مَنْ أشَدُّ منا قُوةً أولمْ يروا أنَّ اللهَ الـذي خَلَقَهُم هو أَشـدُّ مـنهم قُوةً وكـانوا بآياتنا يَجْحدون﴾ [فصلت: ١٥].

الصفات التي اختلف فيها المتكلمون:

ثم إننا نتكلم على الصفات التي اختلف فيها المتكلمون: هل هي صفـات فعل أو صـفات معنى، والتـحقـيق: أنها صفات مـعانٍ قائمة بذات الله جل وعلا. كالرأفـة والرحمة والحلم. فنجده جل وعلا وصف نفـسه بأنه رؤوف رحيم، قال: ﴿إنَّ ربَّكُمْ لرؤوف رحيم﴾ [النحل: ٧]، ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال فـي وصف نبينا ﷺ: ﴿لقد جَاءَكُم

رسُولٌ من أنفُسكُم عـزيزٌ عليـه مـا عَنِتُّمْ حـريصٌ علَيكُم بالمؤْمنينَ رَؤُوفٌ رحيم﴾ [التوبة:١٢٨]، ووصف نفسه بالحلم، قال: ﴿ليُدْخلَنَّهم مُّدْخـلاً يَرضَوْنَه وإنَّ الله لعليمٌ حليمٌ﴾ [الحج:٥٩]، ﴿وَاعلَمـوا أنَّ اللهَ يعلمُ مـا في أنفسُكم فـاحْذَرُوه واعلَمـوا أنَّ اللهَ غـفُورٌ حليمٌ﴾ [البقرة:٢٣٥]، ﴿قَوْلٌ معروفٌ ومـغـفرَةٌ خـيْرٌ مِّن صـدَقـة يتبَعُهـا أذًى واللهُ غَنيٌّ حليمٌ﴾ [البقرة:٢٦٣]، ووصف بـعض المخلـوقين بالحـلم، قـال: ﴿فبشـرنَاهُ بِغلامٍ حليمٍ﴾ [الصافات:١٠١]، ﴿إنَّ إبراهـيمَ لأوَّاهٌ حلـيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

ووصف نفسـه بالمغفـرة: قال: ﴿إن اللهَ غَفـورٌ رحـيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣، ومواضـع اخرى] ﴿فـيَغـفرُ لمن يشـاءُ ويُعـذِّبُ مَن يشاءُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، ووصف بعض المخلوقين بالمغفرة، قال: ﴿ولَمَن صَبر و غفـرَ إنَّ ذلك لَمنْ عَزْمِ الأمور﴾ [الشورى:٤٣]، ﴿قولٌ معـرُوفٌ ومغفرَةٌ﴾ [البقرة:٢٦٣]، ﴿قل للذيـن آمنوا يغفـروا للذين لا يرجون أيام الله﴾ [الجاثية:١٤]. ولا شك أن ما وُصف به خالق السموات والأرض من هذه الصفات أنه

حق لائق بكماله وجلاله لايجوز أن ينفى خوفًا من التشبيه بالخلق. وأن ما وصف به الخلق من هذه الصفات حق مناسب لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

وعلى كل حال فلا يجوز للإنسان أن يتنطَّعَ[1] إلى وصف أثبته الله جل وعلا لنفسه، فينفى هذا الوصف عن الله مُتَهَجِّمًا على رب السموات والأرض، مُدَّعِيًا عليه أن هذا الوصف الذي تمدَّح به أنه لا يليق به، وأنه هو ينفيه عنه، ويأتيه بالكمال من كِيسِهِ الخاص، فهذا جنونٌ وهَوَسٌ. ولا يذهب إليه إلا من طمس الله بصائرهم.

وسنضرب لكم لهذا مثلاً يتبين به الجميع، لأن مثلاً واحدًا من آيات الصفات ينسحب على الجميع، إذ لا فرق بين الصفات، لأن الموصوف بها واحد. وهو جل وعلا لا يشبهه شيء من خلقه في شيء من صفاته البتة.

---

(١) كذا بالأصل والصواب زيادة «فيأتي» حتى يستقيم المعنى.

فهذه صفة الاستواء التي كثر فيها الخوض، ونفاها كثير من الناس بفلسفة منطقية، وأدلة جدلية، سنتكلم في آخر البحث على وجوه إبطالها كلامًا يخصّ الذين درسوا المنطق والجدل، ليتبين كيف استدل أولئك بالباطل، وأبطلوا به الحق، وأحقوا به الباطل. فهذه صفة الاستواء تجرأ الآلاف ممن يدعون الإسلام فنفوها عن رب السموات والأرض بأدلة منطقية، يركبون فيها قياسًا استثنائيًا مركبًا من شرطية متصلة لزومية، يستثنون فيه نقيض التالي، ينتجون في زعمهم الباطل نقيض المقدم، بناء على أن نفي اللازم يقتضي نفي الملزوم.

فيقولون مثلاً: لو كان مستويًا على عرشه لكان مشابهًا للخلق، لكنه غير مشابه للخلق، ينتج: فهو غير مستو على العرش. وهذه النتيجة باطلة لمخالفتها صريح القرآن.

اعلموا أن هذه الصفة التي هي صفة الاستواء صفة كمال وجلال، تمدح بها رب السموات والأرض. والقرينة على أنها صفة كمال وجلال أن الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلا مصحوبة بما يُبهرُ العقول من صفات جلاله

وكماله، التي هي منها. وسنضرب مثلاً لذلك بذكر الآيات:

١ ـ أول سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء حسب ترتيب المصحف سورة الأعراف، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَوات والأرضَ في ستَّة أيام ثم اسْتَوى على العَرْشِ يُغْشِي الليلَ النهارَ يَطْلُبُه حَثيثًا والشَمْسَ والقمرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرات بأمْره ألاَ لَه الخَلْقُ والأمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين﴾ [الاعراف:٥٤]، فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟!

٢ ـ الموضع الثاني في سورة يونس، قال: ﴿إِنَّ ربَّكُمُ اللهُ الذي خَلَق السمَوات والأرضَ في ستَّة أيامٍ ثم استوىٰ على العَرْشِ يُدبِّرُ الأمرَ ما من شَفيعٍ إلا من بعْد إذْنه ذَلكم اللهُ ربُّكُم فاعبدوهُ أفلاَ تَذَكَّرون * إليه مرجعُكم جَميعًا وَعْدَ الله حقًا إنَّه يَبْدَؤُ الخلْقَ ثُمَّ يُعيدُه ليَجْزيَ الذين آمنُوا وعملوا الصالحات بالقسْط والذين كَفروا لهم شَرابٌ من حَميم وعذَابٌ أليمٌ بما كانوا يكفُرون* هو الذي جعَل الشمسَ ضياءً والقمرَ نورًا وقدَّرهُ منازلَ لتعلَموا عدد السِّنين

والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون * إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ [يونس: ٣ - ٦].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على هذا الكمال والجلال؟!

٣ - الموضع الثالث في سورة الرعد، في قوله جل وعلا: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ [الرعد: ٢-٤]، وفي القراءة الأخرى: ﴿وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوان

تُسقى [1] بماء واحد ونُفَضِّلُ بعضَها على بعْض في الأُكُل إنَّ في ذلك لآيَات لقوم يَعْقلُون﴾. فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

٤ ـ الموضع الرابع في سورة طه: ﴿طه* ما أنزلنا عَلَيْك القُرآنَ لتَشْقَى * إلا تذْكرةً لمَن يَخشى * تنزيلاً ممَّنْ خَلَقَ الأرْضَ والسَّموات العُلَى * الرَّحمنُ على العَرْشِ استوى

(١) قال الإمام ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير (٤/ ٣٠٣) ما يلي: « قوله تعالى ﴿تسقى بماء واحد﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: « تسقى » بالتاء، و «نفضّل »بالنون. وقرأ حمزة، والكسائي: « تسقى » بالتاء أيضًا، لكنهما أمالا القاف. وقرأ الحسن « ويفضّل » بالياء. وقرأ عاصم، وابن عامر: « يُسقى » بالياء و«نُفضّل» بالنون. وكلهم كسر الضاد. وروى الحلبي عن عبد الوارث ضم الياء من « يُفضَّل » وفتح الضاد،« بعضُها » برفع الضاد. وقال الفرّاء: من قرأ «تُسقى » بالتاء ذهب إلى تأنيث الزرع، والجنات، والنخيل، ومن كسر ذهب إلى النبت، وذلك كلّه يسقى بماء واحد، وأُكلُه مختلف حامض وحلو، ففي هذا آية» ا.هـ. وانظر: تفسير الطبري [(١٣/ ٦٧، ٦٨)، (١٦/ ٣٤٠ ـ ٣٤٤ / شاكر)]، والقرطبي (٩/ ٢٨٣)، وتفسير البغوى (/ ٢٩٤ ٤)، وفتح القدير (٣/ ٧٤، ٧٥)، وغيرها. واختار الطبري قراءة (تُسقى) بالتاء.

* لهُ ما في السموات ومـا في الأرض وما بَيْنهُما وما تَحْت الثَّرى * وإن تَجهَر بالقَوْل فـإنهُ يعْلَمُ السرَّ وأخْفى * اللهُ لا إله إلا هو له الأسمَاُء الحُسنَى﴾ [طه: ١ ـ ٨].

فهل لأحـد أن ينفي شيـئًا من هذه الصفـات الدالة على الجلال والكمال؟!

٥ ـ الموضع الخـامس في سـورة الفـرقـان، في قـوله: ﴿وتوكلْ على الحيِّ الذي لا يموتُ وسبحْ بحـمده و كفى به بذنوبِ عبـاده خبيرًا * الذي خلق السـموات والأرضَ وما بينهما في ستةِ أيامٍ ثم استوى على العرش الرحمنُ فاسأل به خبيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨ ـ ٥٩].

فهل لأحـد أن ينفى شيـئًا من هذه الصفـات الدالة على هذا الكمال والجلال ؟!

٦ ـ الموضع السادس في سورة السـجدة في قوله تعالى: ﴿أمْ يَقُولُون افْتراَه بل هو الحَقُّ من ربِّك لتُنذرَ قـومًا ما أتاهُمْ مـن نذيـر من قَبْلكَ لـعلَّهُم يَهْتَـــدُونَ * اللهُ الـذي خَلَقَ السَّموات والأرضَ ومـا بَيْنَهُمَا في ستَّة أيام ثُمَّ استـوى على

العرش ما لكُم من دُونه من وليّ ولا شَفِيع أفلا تتذكَّرونَ * يُدبِّرُ الأمْرَ منَ السماء إلىَ الأرْض ثُم يعْرُجُ إليه في يوم كانَ مقْدارهُ ألفَ سنَة مما تَعُدُّون * ذلك عَالم الغيب والشهادة العزيزُ الرحيمُ * الذي أحْسَنَ كُلَّ شيء خَلَقَهُ وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين* ثُمَّ جَعَل نَسْلَهُ من سُلالة من ماء مهين * ثُم سَوَّاهُ ونَفَخَ فيه من روحه وجَعَلَ لكمُ السمْعَ والأبْصَارَ والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾[السجدة: ٣ ـ ٩]. فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الغاية من الجلال والكمال؟!.

٧ ـ الموضع السابع في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الأوَّل والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهُو بكل شَيء عليمٌ * هو الذي خَلَقَ السَموات والأرضَ في ستَّة أيام ثُمَّ استوى على العرشِ يَعْلمُ ما يَلِجُ في الأرض وما يَخرُجُ منها وما ينزلُ من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تَعْمَلُون بَصيرٌ﴾ [الحديد: ٣ ـ ٤].

فالشاهد أن هذه الصفة التي يظن الجاهلون أنها صفة نقص، ويتهجمون على رب السموات والأرض بأنه وصف نفسه بصفة

نقص، ثم يسببون عن هذا أن ينفوها ويؤولوها، مع أن الله جل وعلا تمدّح بها وجعلها من صفات الجلال والكمال، مقرونة بما يبهر العقول من صفات الجلال والكمال. هذا يدل على جهل وهوس من ينفي بعض صفات الله جل وعلا بالتأويل.

فتنة التأويل:

ثم اعلموا أن هذا الشيء الذي يقال له التأويل، الذي فُتن به الخلق، وضل به الآلاف من هذه الأمة، اعلموا أن التأويل يطلق - في الاصطلاح - مشتركًا بين ثلاثة معان:

١ - يطلق على ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال، وهذا هو معناه في القرآن، نحو قوله تعالى: ﴿ذلك خَيْرٌ وأحْسَنُ تأويلاً﴾ [النساء:٥٩]، ﴿ولمَّا يأتهمْ تأويلُه﴾ [يونس:٣٩]، ﴿يومَ يأتي تأويلُه يقولُ الذينَ نَسُوه مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف:٥٣]؛ ومعنى التأويل في الآيات المذكورة ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال.

٢ - ويطلق التأويل بمعنى التفسير، وهذا قول معروف؛ كقول ابن جرير: القول في تأويل قوله تعالى كذا، أي تفسيره.

٣ - أما في اصطلاح الأصوليين فالتأويل: هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتملٍ مرجوحٍ لدليل.

وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه، له عند علماء الأصول ثلاث حالات:

أ - إما أن يصرفه عن ظاهره المتبادر منه لدليل صحيح من كتاب أو سنة، وهذا النوع من التأويل صحيح مقبول لا نزاع فيه. ومثال هذا النوع ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الجارُ أحقُّ بصَقَبه»[1]، فظاهر هذا الحديث ثبوت الشفعة للجار. وحمل هذا الحديث على الشريك المقاسم حمل للفظ على محتمل مرجوح غير ظاهر متبادر، إلا أن حديث جابر الصحيح: « فإذا وقعت[2] الحدود وصرفت الطرق فلا

---

(١) أخرجه البخاري ى في صحيحه (رقم ٢٢٥٨، ٠٠٠٠)، وأبو داود (رقم ٣٥١٦)، والنسائي وابن ماجه وغيرهم، من حديث أبي رافع، وانظر الإرواء (رقم ١٥٣٨).

(٢) في المطبوع «ضربت» والتصويب من مصادر التخريج.

شُفعة »[1] دلّ على أن المراد بالجـار الذي هو أحق بصقـبه خصـوص الشريك المقـاسم. فهذا النوع مـن صرف اللفظ عن ظاهره المتـبادر منه لدليل واضح من كتـاب وسنة يجب الرجـوع إليه وهذا التـأويل يسمى تأويلاً صـحيـحًا وتأويلاً قريبًا، ولا مانع منه إذا دل عليه النص.

ب ـ الثاني هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لشيء يعتقده المجتهد دليلاً، وهو في نفس الأمر ليس بدليل. فهذا يسمى تأويلاً بعيدًا، ويقال له: فاسد. ومثَّلَ له بعض العلماء بتأويل الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ لفظ « امرأة» في قوله ﷺ:

«أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل»[2].

قالوا: حمل هذا على خصوص المُكَاتِبَة[3] تأويل بعيد، لأنه

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٥٧)، وأبو داود وابن ماجه وغيرهم، وله شواهد، وانظر الإرواء (رقم ١٥٣٢، ١٥٣٦، ١٥٣٧).

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم من حديث أم المؤمنين عـائشـة، وإسناده حـسن، وله طرق، وشـاهد من حـديث ابن عباس، وانظر إرواء الغليل (٦/ ٤٤٣ ـ ٤٤٧/ رقم ١٨٤٠).

(٣) المُكَاتَبَةُ: هي الأمة تُكاتب على نفـسها بثـمنها، فإذا سعت وأدتْه عـتقت. =

صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه، لأن « أي » في قوله «أي امرأة» صيغة عموم. وأكدت صيغة العموم بـ « ما » المزيدة للتوكيد، فحمل هذا على صورة نادرة هي المكاتبَة حمل اللفظ على غير ظاهره لغير دليل جازم يجب الرجوع إليه.

جـ ـ أما حمل اللفظ على غير ظاهره لا لدليل: فهذا لا يسمى تأويلاً في الاصطلاح، بل يسمى لعبًا، لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ومن هذا تفسير غلاة الروافض قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧] قالوا: عائشة.

ومن هذا النوع صَرْفُ آيات الصفات عن ظواهرها إلى محتملات ما أنزل الله بها من سلطان، كقولهم « استوى » بمعني «استولى»، فهذا لا يدخل في اسم التأويل، لأنه لا دليل عليه البتة. وإنما يسمى في اصطلاح أهل الأصول: لعبًا، لأنه تلاعب بكتاب الله جل وعلا من غير دليل ولا مستند. فهذا النوع لا يجوز لأنه تَهَجُّمٌ على كلام رب

= والكتابة والمُكَاتَبَةُ: أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال يُنجمهُ عليه (على أقساط)، ويكتب عليه أنه إذا أدّى نجومه، في كل نجم كذا، فهو حر.

العالمين. والقاعدة المعروفة عند علماء السلف: إنه لا يجوز صرف شيء من كتاب الله، ولا سنة رسوله، عن ظاهره المتبادر منه، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

التعطيل سببه اعتقاد التشبيه أولا:

فاسمعوا أيها الإخوان نصيحة مشفق، واعلموا أن كل هذا الشرّ إنما جاء من مسألة هي: تنجّس القلب وتلطخه وتدنسه بأقذار التشبيه. فإذا سمع ذو القلب المتنجس بأقذار التشبيه صفة من صفات الكمال التي أثنى الله بها على نفسه، كنزوله إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الأخير[1]، وكاستوائه على عرشه، وكمجيئه يوم القيامة[2]، وغير ذلك من صفات الجلال والكمال، أول ما يخطر في ذهن المسكين أن هذه الصفة تشبه صفة الخلق، فيكون قلبه

---

(١) متفق عليه. من حديث أبي هريرة، البخارى (رقم ١١٤٥، ..)، ومسلم (رقم ٧٥٨). وانظر شرح الحديث لشيخ الإسلام ابن تيمية. ورسالة الإمام الدارقطني في النزول.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٩- طرفه٢٢)، ومسلم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد، وانظر العلو للذهبي.

متنجسًا بأقذار التشبيه، لا يقدر الله حق قـدره، ولا يعظم الله حق عظمته، حيث يسبق إلى ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق. فيكون أولاً نجس القلب متقذره بأقذار التشبيه.

فيدعوه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي صفة الخالق جل وعلا عنه، بادعاء أنها تشبه صفات المخلوق. فيكون فيها أولاً مشبّها، وثانيًا معطلاً ضالاً. فصار ابتداء و انتهاء متهجمًا على رب العالمين، ينفي صفاته عنه بادعاء أن تلك الصفة لا تليق.

واعلموا أن هنا قاعدة أصولية أطبق عليها من يعتد به من أهل العلم: وهي أن النبى ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة، ولا سيما في العقائد.ولا سيما لو مشينا على فرضهم الباطل، أن ظاهر آيات الصفات الكفر، فالنبى ﷺ لم يؤول الاستواء بـ « الاستيلاء » ولم يؤول شيئًا من هذه التأويلات. ولو كان المراد بها هذه التأويلات لبادر النبى ﷺ إلى بيانها، لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة.

فالحاصل أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد هذا الاعتقاد

الذي يحل الشُّبَه ويجيب عن جميع الأسئلة، وهو: أن الإنسان إذا سمع وصفًا وصف به خالق السموات والأرض نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ: امتلأ صدره من التعظيم، ويجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال والشرف والعلو ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين. فيكون القلب منزهًا معظمًا له جل وعلا، غير متنجس بأقذار التشبيه. فتكون أرض قلبه قابلة للإيمان والتصديق بصفات الله التي تمدح بها، أو أثنى عليه بها نبيه ﷺ، على غرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى :١١] والشر كل الشر في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيضطر المسكين أن ينفي صفة الخالق بهذه الدعوى الكاذبة الخائنة.

ولا بد في هذا المقام من نقط يتنبه إليها طالب العلم:

القول في الصفات جميعها من باب واحد:

أولاً: أن يعلم طالب العلم أن جميع الصفات من باب واحد، إذ لا فرق بينها البتة، لأن الموصوف بها واحد،

وهو جل وعلا لا يشبه الخلق في شيء من صفاتهم البتة.

فكما أنكم أثبتم له سمعًا وبصرًا لائقين بجلاله لا يشبهان شيئًا من أسماع الحوادث وأبصارهم، فكذلك يلزم أن تجروا هذا بعينه في صفة الاستواء والنزول والمجيء، إلى غير ذلك من صفات الجلال والكمال التي أثنى الله بها على نفسه.

واعلموا أن رب السموات والأرض يستحيل عقلاً أن يصف نفسه بما يلزمه محذور ويلزمه محال أو يؤدي إلى نقص. كل ذلك مستحيل عقلاً. فإن الله لا يصف نفسه إلا بوصف بالغ من الشرف والعلو والكمال، ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، على حد قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

القول في الصفات كالقول في الذات:

الثاني: أن تعلموا أن الصفات والذات من باب واحد، فكما أننا نثبت ذات الله جل وعلا إثبات وجود وإيمان، لا إثبات كيفية مكيفة محددة، فكذلك نثبت لهذه الذات الكريمة

المقدسة صفات إثبات وإيمان ووجود لا إثبات كيفية وتحديد.

هل آيات الصفات هي من المتشابه؟

واعلموا أن آيات الصفات يطلق عليها كثير من الناس اسم المتشابه، وهذا من جهة غلط، ومن جهة قد يسوغ - كما يثبته الإمام مالك بن أنس. أما المعاني فهي معروفة عند العرب كما قال مالك بن أنس رحمه الله: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب»[1].

كذلك يقال في النزول: النزول غير مجهول، والكيف

---

(١) صحيح. وكذا قاله شيخه ربيعة الرأى، فقد أخرجه أبو سعيد الدارمي في الرد على الجهمية (رقم ١٠٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٦٦٤،٦٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥ - ٣٢٦)، والصابوني في عقيدة السلف (رقم ٢٥، ٢٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٠٨، ٤٠٩) وفي الاعتقاد (ص٥٦)، والمقدسي في العلو (رقم٩٠، ١٠٤)، والذهبي في العلو (رقم ١١١، ١٣١، ١٣٢)، والخلال، وقد خرجته في تقريب التدمرية (ص٣٩). فكون «الاستواء غير مجهول»، يدل على أن معناه غير متشابه؛ بل هو معروف عند العرب، وأن معناه الارتفاع في اعتدال. وقوله «والكيف غير معقول»=

غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب. وأطرده في جميع الصفات. لأن هذه الصفات معروفة عند العرب، إلا أن ما وصف به خالق السموات والأرض منها أكمل وأجل وأعظم من أن يشبه شيئًا من صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق جل وعلا حق، المخلوقان لهم ذوات، وذات الخالق جل وعلا أكمل وأنزه وأجلّ من أن تشبه شيئًا من ذوات المخلوقين !

فعلى كل حال: الشر كل الشر في تشبيه الخالق بالمخلوق، وتنجيس القلب بقذر التشبيه. فالإنسان المسلم إذا سمع صفة وصف بها الله أول ما يجب عليه أن يعتقد أن تلك الصفة بالغة من الجلال والكمال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينها وبين صفات المخلوقين، فتكون أرض

= يدل على عجز البشر عن إدراكه. وما استأثر الله بعلمه يسمى متشابهاً. بناء على أن الوقف على قوله تعالى: ﴿ومَا يَعْلَمُ تأْويلَهُ إلا اللهُ﴾ فهو بالنسبة إلى الصفة غير متشابه، وبالنسبة إلى كيفية الاتصاف بها متشابه؛ بناء على أن المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه.

قلبه طيبة طاهرة قابلة للإيمان بالصفات على أساس التنزيه، علـى نحو ﴿لَيْسَ كمثله شيءٌ وهو السميعُ البَصيرُ﴾ [الشورى:١١].

ليس ظاهر الصفات التشبيه حتى تحتاج إلى تأويل:

وهنا سؤال لا بـد من تحقيقه لطالب العلم أولا: اعلموا أن المقرر في الأصول أن الكلام إن دل علـى معنى لا يحتمل غيره فهو المسمى « نصًا » كقوله مثلا ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦]، فإذا كان يحتمل معنيين أو أكثر فلا يخلو من حالتين، إما أن يكون أظهر في أحد الاحتمالين من الآخر، وإما أن يتساوى بينهما. فإن كان الاحتمال يتساوى بينهما فهذا الذي يسمى في الاصطلاح «المجمل» كما لو قلت « عدا اللصوص البارحة على عين زيد » فإنه يحتمل أن تكون عينه الباصرة عوَّروها، أو عينه الجارية غوَّروها[1]، أو عينه ذهبه وفضته سرقوها. فهذا مجمل.

(١) المراد: عين الماء، غوّروها: أذهبوا ماءها. وغار الماء غَوْرًا وغُؤورًا وغَوَّر: ذهب في الأرض وسفل فيها، وذهب في العيون. وفي القرآن ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورًا﴾ [تبارك: ٣٠].

وحكم المجمل أن يتوقف عنه إلا بدليل على التفصيل. أما إذا كان نصًا صريحًا فالنص يعمل به ولا يعدل عنه إلا بثبوت النسخ. فإذا كان أظهر في أحد الاحتمالين فهو المسمّى بـ « الظاهر » ومقابله يسمى « محتملا مرجوحًا»، والظاهر يجب الحمل عليه إلا لدليل صارف عنه، كما لو قلت: « رأيت أسدًا » فهذا مثلاً ظاهر في الحيوان المفترس، محتمل للرجل الشجاع.

وإذًا فنقول: فالظاهر المتبادر من آيات الصفات من نحو قوله﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أيديهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وما جرى مجرى ذلك هل نقول الظاهر المتبادر من هذه الصفة هو مشابهة الخلق، حتى يجب علينا أن نؤول ونصرف اللفظ عن ظاهره؟ أو ظاهرها المتبادر منها تنزيه رب السموات والأرض حتى يجب علينا أن نقره على الظاهر من التنزيه؟ الجواب: إن كل وصف أسند إلى رب السموات والأرض فظاهره المتبادر منه عند كل مسلم هو التنزيه الكامل عن مشابهة الخلق، فإقراره على ظاهره هو الحق، وهو تنزيه رب السموات والأرض

عن مشابهة الخلق في شيء من صفاته. فهل ينكر عاقل أن المتبادر للأذهان السليمة أن الخالق ينافي المخلوق في ذاته وسائر صفاته؟ لا والله لا يعارض في هذا إلا مكابر.

مناقشة المتكلمين وإلزامهم الحق بمقتضى قواعدهم:

ثم بعد هذا البحث الذي ذكرنا نحب أن نذكر كلمة قصيرة لجماعة قرؤوا في المنطق والكلام، وظنوا نفي بعض الصفات من أدلة كلامية، كالذي يقول مثلا: لو كان مستويًا على العرش لكان مشابهًا للحوادث، لكنه غير مشابه للحوادث، ينتج: فهو غير مستو على العرش. هذه النتيجة الباطلة تضادّ سبع آيات من المحكم المنزل!

ولكننا الآن نقول في مثل هذا على طريق المناظرة والجدل المعروف عند المتكلمين، نقول: هذا قياس استثنائي مركب من شرطية متصلة لزومية، واستثنائية، استثنى فيه نقيض التالي فأنتج نقيض المقدم، حسب ما يراه مقيم هذا الدليل. ونحن نقول: إنه تقرر عند عامة النُظَّار أن القياس الاستثنائي المركب من شرطية متصلة لزومية يتوجه عليه

القدح من ثلاث جهات:

١ - يتوجه عليه من جهة استثنائيته.

٢ - ويتوجه عليه من جهة شرطيته إذا كان الربط بين المقدم والتالي ليس بصحيح.

٣ - ويتوجه عليه القدح من جهتهما معاً وهذه القضية كاذبة الشرطية. فالربط بين مقدمها وتاليها كاذب كذبًا بحتًا. ولذا جاءت نتيجتها مخالفة لسبع آيات.

إيضاحه أن نقول: قولكم لو كان مستويًا على العرش لكان مشابهًا للحوادث، هذا الربط بين (لو) و (اللام) كاذب كاذب كاذب! بل هو مستو على عرشه، كما قال، من غير مشابهة للحوادث، كما أن سائر صفاته واقعة كما قال، من غير مشابهة للخلق، ولا يلزم من استوائه على عرشه كما قال أن يشبه شيئًا من المخلوقين في صفاتهم البتة، بل استواؤه صفة من صفاته. وجميع صفاته منزهة عن مشابهة الخلق كما أن ذاته منزهة عن مشابهة ذوات الخلق.

ويطرد هذا في مثل هذا.

وعلى كل حال فالجواب عن شيء واحد من هذا يطرد في الجميع.

وآخر ما نختتم به هذه المقالة أنا نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله، وأن تلتزموا بثلاث جُمَلٍ من كتاب الله:

الأولى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فتنزهوا رب السموات والأرض عن مشابهة الخلق.

الثانية: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فتؤمنوا بصفات الجلال والكمال الثابتة في الكتاب والسنة على أساس التنزيه، كما جاء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

الثالثة: أن تقطعوا أطماعكم عن إدراك حقيقة الكيفية، لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل. وهذا نص الله عليه في سورة طه حيث قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] فقوله ﴿يُحِيطُونَ بِهِ﴾ فعل مضارع، والفعل الصناعي الذي يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمر والفعل الماضي ينحل عند النحويين عن «مصدر» و«زمن»، كما قال ابن مالك في الخلاصة:

المَصْدَرُ اسم ما سِوَىٰ الزمان مِنْ
مَدْلُولَيِّ الفِعْلِ كَأَمْنٍ مِنْ أَمِنْ

وقد حرر علماء البلاغة في مبحث الاستعارة التبعية أنه ينحل عن (مصدر، وزمن،و نسبة) فالمصدر كامن في مفهومه إجماعًا، فـ ﴿يحيطون﴾ تكمن في مفهومها (الإحاطة)، فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل، فيكون معه كالنكرة المبنية على الفتح، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشرى برب السموات والأرض. فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها. فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين.

فلا يشكل عليكم بعد هذا صفة نزول ولا مجيء، ولا صفة يد ولا أصابع ولا عجب ولا ضحك[1]. لأن هذه الصفات كلها من باب واحد. فما وصف به نفسه منها فهو حق، وهو لائق بكماله وجلاله، لا يشبه شيئًا من صفات

(١) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة. والأحاديث التى تثبت هذه الصفات في الصحيح.

المخلوقين. وما وُصِفَ به المخلوقون منها فهو حق مناسب لعجزهم وفنائهم وافتقارهم. وهذا الكلام الكثير أوضحه الله في كلمتين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ليس كمثله شيء: تنزيه بلا تعطيل. وهو السميع البصير: إيمان بلا تمثيل. فيجب من أول الآية وهو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ التنزيه الكامل الذي ليس فيه تعطيل، ويلزم من قوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الإيمان بجميع الصفات - الذي ليس فيه تمثيل. فأول الآية تنزيه، وآخرها إثبات. ومن عمل بالتنزيه الذي في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ والإيمان الذي في قوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وقطع النظر عن إدراك الكُنْه والحقيقة المنصوص في قوله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] خرج سالمًا.

وقد ذكرتُ لكم مرارًا أني أقول: هذه الأسس الثلاثة التي ركزنا عليها البحث وهي:

١ - تنزيه الله عن مشابهة الخلق.

٢ - الإيمان بالصفات الثابتة بالكتاب والسنة وعدم التعرض لنفيها وعدم التهجم على الله بنفي ما أثبته لنفسه.

٣ - وقطع الطمع عن إدراك الكيفية.

لو (متُّم) يا إخواني، وأنتم على هذا المعتقد، أتَرَوْنَ اللهَ يوم القيامة يقول لكم لِمَ نزهتموني عن مشابهة الخلق، ويلومكم على ذلك؟! لا وكلا والله لا يلومكم على ذلك! أترون أنه يلومكم على أنكم آمنتم بصفاته وصدقتموه فيما أثنى به على نفسه، ويقول لكم: لم أثبتُّمْ لي ما أثبت لنفسي أو أثبته لي رسولي؟! لا والله لا يلومكم على ذلك! ولا تأتيكم عاقبة سيئة من ذلك. كذلك لا يلومكم الله يوم القيامة ويقول لكم: لم قطعتم الطمع عن إدراك الكيفية ولم تحددوني بكيفية مدركة؟!

ثم إنا نقول: لو تنطَّع متنطع وقال: نحن لا ندرك كيفية (نزول) منزهة عن نزول الخلق، ولا ندرك كيفية (يد) منزهة عن أيدي الخلق، ولا ندرك كيفية (استواء) منزهة عن استواءات الخلق. فبينوا لنا كيفية معقولة منزهة تدركها عقولنا؟

فنقول: أولاً: هذا السؤال الذي قال فيه مالك بن أنس «والسؤال عن هذا بدعة»، ولكن نجيب؛ ونقول: أعرفت

أيها المتنطع السائل الضالّ كيفية الذات المقدسة الكريمة المتصفة بصفة النزول، وصفة اليد، وصفة الاستواء، وصفة السمع والبصر والقدرة والإرادة والعلم؟ فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية الذات، إذ الصفات تختلف باختلاف موصوفاتها.

ونضرب مثلاً، ولله المثل الأعلى، فإن الأمثال لا تضرب لله، ولكن الأخرويات لا مانع منها كما جاء بها القرآن، فنقول مثلاً، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله: لفظة (رأس) الراء والهمزة والسين، رأس، هذه الكلمة أضفها إلى المال، وأضفها إلى الوادي، وأضفها إلى الجبل، قل: رأس المال، رأس الوادي، رأس الجبل، فانظر ما صار من الاختلاف بين هذه المعاني بحسب هذه الإضافات، هذا في مخلوق ضعيف مسكين، فما بالك بالبون الشاسع الذي بين صفة الخالق جل وعلا وصفة المخلوق.

وختامًا يا إخواني نعود فنوصيكم وأنفسنا بتقوى الله، وأن تتمسكوا بهذه الكلمات الثلاث:

١ ـ أن تنزهوا ربكم عن مشابهة صفات الخلق.

٢ ـ أن تؤمنوا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ إيمانًا مبنيًا على أساس التنزيه على نحو ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾.

٣ ـ وتقطعوا الطمع في إدراك الكيفية لأن الله يقول: ﴿**ولا يحيطون به علمًا**﴾.

* ونريد أن نختم هذه المقالة بنقطتين:

إحداهما: أن ينبغي للمؤولين أن ينظروا في قوله تعالى لليهود: ﴿**وقولوا حطة**﴾ [البقرة: ٥٨]، فإنهم زادوا في هذه اللفظ المنزل (نوناً)، فقالوا: حنطة[1]، فسمى الله هذه الزيادة تبديلاً، فقال: ﴿**فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون**﴾ [البقرة: ٥٩]، وقال: ﴿**فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون**﴾ [الأعراف: ١٦٢].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥)، من حديث أبي هريرة، وانظر تفسير النسائي (رقم ٩، ١٠).

وكذلك المؤولون للصفات، قيل لهم: استوىٰ، فزادوا (لاماً)، فقالوا استولىٰ !!

فانظر ما أشبه (لامهم) هذه التي زادوها (بنون) اليهود التي زادوها، ذكر هذا ابن القيم.

الثانية: أنه ينبغي للمؤولين أن يتأملوا آية من سورة الفرقان وهي قوله تعالى ﴿**ثم استوى على العرش الرحمن فسأل به خبيراً**﴾ [الفرقان:٥٩]، ويتأملوا معها قوله تعالى ﴿**ولا ينبئك مثل خبير**﴾ [فاطر:١٤]. فإن قوله ﴿**فسأل به خبيراً**﴾ بعد قوله ﴿**ثم استوىٰ على العرش الرحمن**﴾ يدل دلالة واضحة على أن الله الذي وصف نفسه بالاستواء خبير بما يصف به نفسه، لا تخفى عليه الصفة اللائقة من غيرها، ويفهم منه أن الذي ينفي عنه صفة الاستواء ليس بخبير، نعم - هو والله - ليس بخبير.

وصلى الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

مقارنة بين ما سمّوه مذهب السلف ومذهب الخلف:

ثم إنا نريد إنهاء البحث بالمقارنة بين ما يسمّونه مذهب

السلف ومذهب الخلف، وقولهم: إن مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أحكم وأعلم. فنقول:

أولا: وصفوا مذهب السلف بأنه أسلم. وهي صيغة تفضيل من السلامة وما كان يفوق غيره ويفضله في السلامة فلا شك أنه أعلم منه وأحكم.

ثانيًا: اعلموا أن المؤولين ينطبق عليهم بيت الشافعي رحمه الله:

رَامَ نَفْعًا فَضَرَّ مِنْ غَيرِ قَصْدٍ
وَمِنَ البِرِّ ما يكونُ عُقُوقًا

وإيضاح المقارنة أن من كان على معتقد السلف الصالح إذا سمع مثلا قوله تعالى: ﴿**على العرش استوى**﴾ امتلأ قلبه من الإجلال والتعظيم والإكبار لصفة رب العالمين التي مدح بها نفسه وأثنى عليه بها، فجزم بأن تلك الصفة التي تمدح بها خالق السموات والأرض بالغة من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينها وبين صفات الخلق، لأن الصفة لا يمكن أن تشبه صانعها في ذاته، ولا في شيء من صفاته.

وبإجلال تلك الصفة وتعظيمها وحملها على أشرف المعاني اللائقة بكمال من وصف بها نفسه وجلاله، يسهل على المؤمن السلفي أن يؤمن بتلك الصفة، ويثبتها لله كما أثبتها الله لنفسه على أساس التنزيه. فيكون أولاً: منزهًا سالـمًا من أقذار التشبيه. وثانيًا: مؤمنًا بالصفات، مصدقًا بها، على أساس التنزيه. فيكون سالـمًا من أقذار التعطيل.

فيجمع بين التنزيه والإيمان بالصفات على نحو **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** [الشورى: ١١].

فمعتقده طريق سلامة محققة، لأنه مبني على ما تضمنته آية **﴿ليس كمثله شيء﴾** ـ الآية ـ من التنزيه، والإيمان بالصفات. فهو تنزيه من غير تعطيل، وإيمان من غير تشبيه ولا تمثيل. وكل هذا طريق سلامة محققة، وعمل بالقرآن. فهذا هو مذهب السلف.

وأما ما يسمونه مذهب الخلف فالحامل لهم فيه على نفي الصفات وتأويلها هو قصدهم تنزيه الله عن مشابهة الخلق. ولكنهم في محاولتهم لهذا التنزيه وقعوا في ثلاث بلايا، ليست واحدة منها إلا وهي أكبر من أختها:

ـ الأولى من هذه البلايا الثلاث: أنهم إذا سمعوا قول الله تعالى **﴿ثم استوى على العرش﴾** زعموا أن ظاهر الاستواء في الآية هو مشابهة استواء المخلوقين. فتهجموا على ما وصف الله به نفسه في محكم كتابه، وادعوا عليه أن ظاهره المتبادر منه هو التشبيه بالمخلوقين في استوائهم.

فكأنهم يقولون لله: هذا الاستواء الذي أثنيت به على نفسك في سبع آيات من كتابك ظاهره قذر نجس لا يليق بك لأنه تشبيه بالمخلوقين، ولا شيء من الكلام أقذر وأنجس من تشبيه الخالق بخلقه! سبحانك هذا بهتان عظيم! وهذه هي البلية الأولى التي هي التهجم على نصوص الوحي وادعاء أن ظاهرها تشبيه الخالق بالمخلوق، وناهيك بها بلية.

ثم لما تقررت هذه البلية في أذهانهم، وتقذرت قلوبهم بأقذار التشبيه، اضطروا بسببها إلى نفي صفة الاستواء فرارًا من مشابهة الخلق التي افتروها على نصوص القرآن أنها هي ظاهرها.

ونفي الصفة التي أثنى الله بها على نفسه من غير استناد إلى كتاب أو سنة هو البلية الثانية التي وقعوا فيها. فحملوا نصوص القرآن أولا على معان غير لائقة بالله، ثم نفوها

من أصلها، فرارًا من المحذور الذي زعموا.

- والبلية الثالثة: أنهم يفسرون الصفة التي نفوها بصفة أخرى، من تلقاء أنفسهم، من غير استناد إلى وحي؛ مع أن الصفة التي فسرها بها هي بالغة غاية التشبيه بالمخلوقين.

فيقولون ﴿استوى﴾ ظاهره مشابهة استواء المخلوقين. فمعنى استوى «استولى» ويستدلون بقول الراجز في إطلاق الاستواء على الاستيلاء:

قد استوى بِشْرٌ عَلَى العِراقِ   من غير سَيفٍ وَدَمٍ مهراقِ[1]

ولا يدرون أنهم شبهوا استيلاء الله على عرشه الذي زعموه باستيلاء بِشْر بن مروان على العراق!! فأي تشبيه بصفات المخلوقين أكبر من هذا ؟!

وهل يجوز لمسلم أن يشبه صفة الله التي هي الاستيلاء المزعوم بصفة بشر التي هي استيلاؤه على العراق؟ وصفة الاستيلاء من أوغل الصفات في التشبيه بصفات المخلوقين، لأن فيها التشبيه باستيلاء مالك الحمار على حماره، ومالك الشاة

(١) يقال: إنه بيت مصنوع، ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي، وانظر مجموع الفتاوى (٥/١٤٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية، والصواعق المرسلة (٢/ ص٦٧٤-٦٧٥) لابن القيم، ومختصر الصواعق المرسلة.

على شاته ويدخل فيها كل مخلوق قهر مخلوقًا واستولى عليه.

وفي هذا من أنواع التشبيه ما لا يحصيه إلا الله.

فإن زعم من شَبَّهَ أولا، وعطَّلَ ثانيًا، وشبَّه ثالثًا أيضًا، أن الاستيلاء المزعوم منزَّه عن مشابهة استيلاء المخلوقين، قلنا له: نحن نسألك ونطلب منك الجواب بإنصاف: أيهما أحق بالتنزيه عن مشابهة الخلق! الاستواء الذي مدح الله به نفسه في محكم كتابه وهو في نفس القرآن الذي يتلى، ولتاليه بكل حرف منه عشر حسنات لأنه كلام الله، أم الأحق بالتنزيه هو الاستيلاء الذي جئتم به من تلقاء أنفسكم من غير استناد إلى وحي؟

ولا شك أن الجواب الحق: أن اللفظ الوارد في القرآن أحق بالتنزيه والحمل على أشرف المعاني وأكملها، من اللفظ الذي جاء به معطل من كيسه الخاص، لا مستند له من الوحي!

وبهذه الكلمات القليلة يظهر لكم أن مذهب السلف أسلم وأحكم وأعلم.

وقد بسطنا هذه المقارنة في غير هذا الموضع، فاختصرناها هنا، والعلم عند الله تعالى. وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

محمد الأمين الشنقيطي

رقم الايداع: ١١٥١٠ / ١٩٩٤